اللسانيات واللغة العربيّة

الدكتور أحمد عزوز
أستاذ محاضر بكلّية الآداب، اللغات والفنون
قسم اللغة العربيّة وآدابها
جامعة وهران

مقدمة: تعتبر المنظومة التّربوية من أهم القطاعات التي توليها الأمم عنايتها البالغة، فهي تنفق في سبيله الأموال وتخصص لها المشاريع الضخمة، وتستثمر فيها الموارد البشرية، وما ذلك إلا لأنها تتميز عن غيرها من القطاعات بتكوين الانسان وتثقيفه وتعليمه، وتطوير معارفه وخبراته ٠ وتنمية قدراته العقلية، وتبث فيه روح الإبداع والاكتشاف وتنمي فيه روح التعاون والتشاور والقدرة على التعبير والتواصل التي تؤهله لتحمل المسؤوليات في المجتمع.

والتعلم وبخاصة الطفل يأتي إلى المؤسسة التّربوية بعاداته وقدراته الفطرية، ويدخلها لإيقاظ ذكائه، , وتنمية حاسة انتباهه واكتسابه ٠ وأهم الجهود.التي توفره له هو تيسير عملية التعلم الطبيعي لتحفزه على الاستيعاب بأقصر السبل وأنجعها.

وتعد مبادئ دي سوسير من أهم الأفكار التي أفادت تقنيات التعليم في العصر
الحديث، بالإضافة إلى علم النفس العام والتربوي، وبخاصة في مجال تعليم اللغات، فإتقان التعليم يركز على اللغة باعتبارها بناء فكريا ومضمونا ثقافيا– وهي:
ليست وسيلة تراثية تقصد لذاتها أو غاية معرفية فحسب٠ وإنما هي وسيلة

وغاية في الانسان نفسه.

وعندما يؤرخ للسانيات في مفهومها الحديث ٠ فانه من البديهي أن ينكر مؤسسها فردينان دي سوسير **FERDINANDDESAUSSURE**الذي نشرتلميذاه ألبير سيشهاي **ALBERTSECHEHAYE** و شارلي بالي **BALLYCHARLE** كتابه الشهير الوسوم ب " دروس في الألسنية العامة"[1] إ **سنة** 1916.

ومما يلاحظ اليوم أنّ النمونج اللساني فرض وجوده على أغلب ميادين الفكر الإنساني فلا نكاد نتناول مجالا معرفيا إلا ونلقى فيه احتوى منهجه ومصطلحاته. كما بحثت اللسانيات في أصول انتاجه العلمي، وأعادت هيكلّته ومنهجيته وجعلته يسير التناول، فغاص المثقف في أعماق بحرها وتفاصيل أجزائها.

وقد يعود ذلك إلى ان الأسئلة التي تطرحها اللسانيات وما تزال تسجل غيرها، ليست بالضرورة هي تلك التي حاول اللغويون القدامى الإجابة عنها، والتصدي لها، ولا منهجيتها هي تلك التي سار هؤلاء عليها ٠ لأنها في كثير من الأحيان –.تعتمد منهجية جديدة قائمة على مفاهيم علمية دقيقة وموضوعية بحتة>[2].

فكان ما سبق علة من تغير علاقة اللسانيات بالمجالات الانسانية الأخرى وأصبحت قضايا اللغة من حيث هي خاصة انسانية فريدة من نوعها، تهتم بها

بالقدر نفسه الذي اهتمت بها الدراسات الانتروبولوجية والسوسيولوجية والفلسفية. فتأثرت بها أساليب تحليل الخطاب وطرق تعليم اللغات من حيث.

---

[1] فردينان سوسير دروس في الألسنية تعريب صالحالقرمادي وأخران الدار العربية للكتاب طرابلس ليبيا.

[2]ينظر د محمد الحناش البنوية في اللسانيات دار الرشاد الحديثة ط 1 الدار البيضاء.1980 ص6.

المنهج والمصطلحات الأساسية[3]

ولكن الإمكانات التي تطرحها اللسانيات، لا تزال لم تستغل جلها' بعد في أغلبية ميادين المعرفة الانسانية في جانبها العربي. وهي إمكانات منهجية وقواعدها.

اللسانيات بين القبول والعزوف: ويمكن القول ط انه على الرغم مما كتب في. ميدان اللسانيات باللغات الأجنبية، فان اللغة العربيّة لم تستهلك القدر الذي يسمح للدرس اللغوي العربي بفتح باب المناقشة والمساءلة والحوار حول الإشكاليات التي يفترضها هذا العلم ويضعها، وحول طرق الإفادة منه وكيفية تطبيق تقنياته في المجال التعليمي والتطبيقي.

وقد يعود ذلك إلى أسباب منها :

أ- حداثة العلم ومناهجه مما يدعو إلى القلق والتخوف - من حين لآخر – من كلّ جديد، وبخاصة من النتائج التي يصل إليها العلم والتي قد يشك – في بعض الأحيان –في أن المادة المدروسة أو القضايا المعالجة لا تقبلها.

ب – الطريقة التي قدم بها بعض الدراسيين اللسانيات، إذ رصدوا نظرياتها ومناهجها في أشكال ورسوم ورموز وأرقام، تفقد اللغة ذوقها وجمالها وعذوبتها وإيقاعها وتنفيهاتها وهي من العناصر المميزة للغة العربيّة والمحفزة على تعلمها وإتقانها

ج – للأمة العربيّة تراث لغوي من أغزر ما تخلفه الأحقاب الحضارية لمن بعدها ٠ فقد أتى أبناؤها على لغتهم جمعا وتمحيصا، ثم دراسة وتنظيما. حتى عدت علومهم اللغوية مضرب الأمثال، شهد لهم بذلك كلّ من أطلع على التراث

---

[3] ينظر ميشال زكريا علم اللغة الحديث المؤسسة الامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت لبنان 1983 ص 12.

العربي الضخم من المستشرقين والغربيين. فأدى ذلك إلى نشأة سياج من المحظورات ترسخ بموجبه عقد الاستغناء – أحيانا – عما تنتجه الأمم الأخرى. وكأنما حال العربي يقول : أفإن رضينا ان نلتجىء إلى غيرنا في علوم الطبيعية وصناعة الطب وأسرار الغضاء. أفيليق بنا ان نتتلمذ – أيضا – في علوم اللغة على ما سوانا[4]

وقد يكون. في هذا جانب من الصواب إذا كانت الغاية من العلم وضع الفواصل والحواجز بين الماضي والتاريخ وما يكتشف وينجز يوميا هنا وهناك في هذا العالم السريع التغير. اللسانيات والتراث والنحو: ومن هذا المنطق. فقد أبتدع العرب الكثير من الفرضيات والمقولات والنظريات على الأقل في المجال اللغوي. ولكنها ظلت مستقلة بعضها عن بعض. ليس على مستوى الجانب الفكري بمعناه العام فقط. بل تعدى ذلك إلى الكتب المدرسية التي درجت على تشقيق المادة اللغوية الواحدة. ففصلت دروس النحو عن دروس الصرف وغيره، وأهملت العناية بجانب النطق أو دراسة الأصوات دراسة تطبيقية متأنية واكتفت في جانب المعنى بتقريب ما يريده الطالب دون تمكينه من القدرة على البحث في القاموس. العربي وتشجيع مهاراته الفردية في هذا الصدد[5].

بل الأعجب من هذا اننا نجد من'. لا يفيد من علم النحو في كتاباته وفي فهم الأساليب بل اننا نجد من المدرسين من يتنصل من مسئوليته في الإشارة إلى أي باب من أبواب النحو ولو,كان يتظلب ذلك مبدئيا لفهم قضايا دلالية **أو** تركيبية وعلى هذا الأساس فان النحو ليس مسؤولية فرد في هذا القسم **أو** ذلك بل انه مهمة كلّ المشتغلين في حقل من يوصل الفكرة **أو** المعنى **أو** الخبر باللغة العربيّة.

---

[4]د عبد السلام المسدي اللسانيات وأسسها المعرفية الزائر 1986 ص 13.

[5] ينظر د أحمد طاهر حسنين نظرية الاكتمال اللغوي عند العرب ط 1 القاهرة ص 2.

ويعود.هذا إلى غياب النظرة التجميعية وفقدان شمولية المنهج في التدريس والفهم أيضا.

فوظيفة اللسانيات تجعل ١القارىء العربي في علاقة ألفة واستئناس مع التراث اللغوي العربي الضخم، وبها تدخل الأصالة والمعاصرة في تحالف لا ينفك ولا ينفصل إلا بعد ان يكتمل المنهج اللغوي الذي يرجى لهذه الأمة ولا يمكن للمرء ان يكون معاصرا مجددا إلا إذا كان تراثيا أولا[6]، أي ان اللسانيات لا تعلن القطيعة مع هذا التراث ولكن العكس هو المقصود، ثم ان الغاية منها – أيضا – تتجلى في خدمته.

ولاشك في انها تعيد النظر في ذلك المزج بين فروع علم اللغة المختلفة في دفتي المصدر الواحد الذي تتشابك فيه المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية والمعجمية، وتعرض متداخلة في أبوابه، فيلاقي القارىء – في كثير من الأحيان – نوعا من الغموض واللبس بسبب الطريقة التي قدمت بها القضايا اللغوية.

فالنحوي القديم مثلا: كان إذا تعرض لقضية تركيبية أخذه الحديث إلى الكلّام عن الصوت والدلالة والمعجم وتشعب الفرع المتعددة دون ان يشعر القارى، بهذا الانتقال المفاجئ من مستوى إلى آخر[7] .

وقد درج الدارسون على هذا المنهج، وازداد فرط المتأخرين فيه بممر العصور، فساء الدرس اللغوي وورثه أهل هذا الزمان نحوا غريبا يتلقف في الحواشي ويلتمس في الشروح، فتفاقم الجهل – في كثير من الأحيان – بالمستويات التركيبية للعربية وببنائها اللفظي لدى كثير من النّاس، لأن القارئ أصبح إزاء فرضيات ومعميات لا سبيل إلى إدراكها والاقتناع بها [8].

---

[6] ينظر محمد الحناش المرجع السابق ص 6.
[7] ينظر محمد الحناش المرجع السابق ص 7.
[8] ينظر محمد الحناش المرجع السابق ص 7

وما يلاحظ ان الأجيال المتعاقبة ورثت اللغة العربيّة في مصادرها الأصلية والمتأخرة، ومما يؤسف له ان طائفة من المؤلفات. ظلت أسيرة التقليد وبعيدة عن النظرة التصنيفية الشمولية احتوت على عناصر غريبة عن المادة اللغوية في تناولها لها ولاسيما نحوها[9] ، فكانت بعيدة عن المنهج العلمي الذي يتحرى الدقة والبحث عن العلاقة بين المستويات اللغوية المختلفة وإيجاد القاسم الإبلاغي المشترك بينها، وبخاصة ان اللغة هدفها الإيصال والتفاهم بين أفراد المجموعة المتكلمة باللغة.

وفي هذا المجال قد أفاد عبد القاهر الجرجاني بما في النحو من إمكانات تعبيرية ووظائفها بشكلّ مباشر في محاولة ليقعد نظرية لغوية في فهم "الأسلوب" من حيث كان النحو مبدعا للنسق التعبيري الذي يحقق (المزية والفضيلة) بجانب الصحة والسلامة حيث تمكن في ضوء مفهومه للنحو ان يستجلي جوانب خصبة في التراكيب، فربط نسقها بالفكر، وكان ذلك مقدمة لنظريته التي أطلق عليها مصطلحا دقيقا أسماه النظم.[10] . لكن ما هو المطلوب اليوم في ضوء التطورات التي يشهدها العالم العربي في مجال الفكر والرؤى واالتطلع إلى مستقبل أفضل؟

يتجه العمل – بلا ريب– نحو إعادة النظر في طرائق التحليل اللغوي في ضوء ما انجزته اللسانيات والعسعي إلى إيجاد ألسنية عربية متميزة قادرة على تفهم القضايا اللغوية ووضع الأسس العلمية لدراستها ووصفها واستيعابها[11] لان المرء يشعر في كلّ لحظة بضرورة فهم لغته ووصفها الوصف الواضح ومعالجتها بطرق علمية ومنهج دقيق يقوم على الموضوعية ومؤسس على التعليل البعيد عن التأويل والنظر الخيالي لتصبح هذه اللغة في متناول كلّ من

---

[9]عصر د ابراهيم السامرائي العربية تواجه ال منشورات دار الجاحظ

[10] ينظر عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز دار المعرف بيروت ط 2 1981.

[11] ينظر د ابراهيم السمرائي المرجع نفسه ص 21.

يرغب دراستها وتنذع من الاذهان صعوبة تعلمها وغموض قضاياها.

ولا شك – أيضا – في ان الظروف التاريخية التي نحياها اليوم ليست منفصله عن الماضي ومن هنا يتحتم علينا ألا نتنكر لماضينا وان نستعرض النظريات وقواعدها ما مضى منها وما انقضى لنفهم اللحظة الحاضرة وان نتأمل ما أبدعه القدماء الأفذاذ.

وقد أثبت التاريخ **ان** المتقدمين من اللغويين العرب انهم أفادوا مما واجههم علم أمم عصرهم – كالعلم اليوناني والروماني وغيرهما — لذلك فليس من العيب ان يؤخذ اليوم ما يفيد دراسة اللغة العربيّة وفهمها في ضوء العلم الجديد. لأن التسلح بالنظريات اللعسانية المتطورة أصبح أخرا ضروريا لسبر قضايا اللغة وتحليلها.

ويسشهد في وضع القواعد بنصوص فطاحل الكلّمة القدامى وما يكتبه أرباب الفكر والقلم اليوم، وما ينشده شعراء مبرزون، لهم ملكة لسانية. شهد لهم بها جهايذة النقد فامتازوا باللغة الرأقية وبلاغة المعاني وفصاحة الألفاظ. لغة تعلم العربيّة وتربي على الذوق السليم ولا تعلم اللكنة والعجمة والنفور منها ٠ وأمثال هؤلاء الفطاحل لا يحصى عددهم ولا يقدر.

وانطلاقا من ذلك يصنف الكلّام العربي تصنيغا واقعيا وتوصف أجزاؤه وعلاقة كلّ جزء بالآخر، وكيف يتأتى المعنى من التركيب ويتغير بتغيره، " لان المعنى قد يحدد – في كثير من الأحيان " من خلال التأليف الكلّي للنص لان جملته لا تفهم في ذاتها فحسب وإنما تساهم الجملة الأخرى في فهمها[12]. وليس هذا غريبا عن نهج اللغويين العرب القدامى أمثال الخليل وسيبويه وابن جني وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم من الذين حللوا اللغة من منطلقات علمية يمكن عدها متطورة بالنسبة لعصرهم مما يؤكد ان المفاهيم اللسانية المتقدمة ليست

[12]د عبد الكريم بكري فصول اللغة والاداب ديوان المطبوعات الجامعية ص 8.

دخيلة على التراث اللغوي, العربي[13]. وانطلاقا مما سبق، يمكن إعادة وهيكلّة ومنهجة.قواءد اللغة العربيّة حين الفصل بين كلّ الفروع اللغوية والتمييز بين ما هو صرفي مما هو تركيبي من غيره، – وان كانت هذه المستويات متصلة فيما بينها – أي لا تنقل من مستوى إلى آخر دون إحساس القارى–» بهذا الانتقال. ولا يفيد التركيز على منهج بعينه، وانما للباحث الحرية في اختيار المنهج الذي يتبناه، وما يهمه هو ان يخدم اللغة العربيّة خاصة وان أية مدرسة لم توفق إلى الآن في صياغة نظرية شاملة، وانما كلّ ما نجده هو بعض المبادئ الجزئية والنسبية التي إذا أضاءت جوانب بقيت أخرى مظلمة[14].

وبذلك سيجد القارئ ان النحو العربى مثلا " أسهل بكثير مما يتصوره بعض النّاس، ثم انه من السهولة بمكان بناء تركيب جديد للغة العربيّة، لا يغفل فيه التراث كما لا تغفل فيه المناهج الجديدة[15].

وفي واقع الأمر، ان دارس اللسانيات في أية بقعة من الوطن العربي إذا رغب خدمة اللغة العربيّة فما يتحتم عليه القيام به هو عقد الألفة والصداقة مع النحاة واللغويين العرب القدامى من خلال مؤلفاتهم المنشورة والمخطوطة، لان كلّ مجدد يفترض فيه ان يكون عارفا التراث، وملما به، كما انه لا يقف عند هذا الحد، بل عليه ان يتزود. بالمعرفة اللسانية المعاصرة.

وهذه الثنائية أو الازدواجية ستمكنه من ان يوضع نفسه في موضع قوة من حيث انه سوف يتطرق إلى أي موضوع بأداة علمية وتقنية مناسبة للعصر وتجعله يحسن تقديمه للآخرين بوسائل 'سهلة تدفعهم إلى إعادة قراءته وصياغته وبلورته لمسايرة ركب الحضارة[16].

---

[13] ينظر د ميشال زكريا الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)1983 ص 5

[14] ينظر محمد مفتاح تحليل الخطاب الشعري المركز الثقافي العربي المغرب ط 2.

[15] د محمد حناش المرجع السابق ص 7.

[16] د ابراهيم السامرائي ص 3.

وهل يسر لأحد رغب بناء اللغة العربيّة وخدمتها، ولم يكن له من الترأث عدة وافية ومن المعاصرة فكر ومنهج[17].

الخاتمة: وأخيرا، ان الوعي اللغوي للعصر والاهتمام بوسائل الاتصال بين البشر يزداد يوما بعد يوم، ومن ثم فان تقريب اللسانيات من القارىء العربي، وإدخالها في صلب ثقافته سيعودان بالنفع على الثقافة العربيّة سواء كان ذلك في بعدها القومي أم في بعدها العالمي، باعتبارها وسيلة حاملة. للثقافة العربيّة وتراثها، وأداة حوار بين اللغات والحضارات عبر أحقاب تاريخية متواصلة.

ولما كانت الحضارة الانسانية تراثا مشتركا بين أمم الأرض جميعا، فان هذه الثقافة هي الدعامة الأولى للحضارة، لانها ليست ملكا لقوم فقط، ولذلك فمن الجدير ان ينهل من اللسانيات حتى تدخل الدراسات اللغوية العربيّة في حقبة متطورة، تكون جسرا تتلاقى فيه روافد الأصالة والحداثة، ويشرئب إلى مستقبل ناضر مشبع بروح التقدم حتى نؤكد خاصتنا الأساسية التي من أجلها نحيا وهي الاشتراك فيما ينتجه العقل والفكر والانسانيان، فقد نأخذ اليوم ونعطي غدا، وبهذا يتحدد دورنا في المساهمة في تشييد صرح الحضارة البشرية بكلّ ضروبها.

---

[17] د محمد الحناش المرجع السابق ص 6.